تحولات الرؤيا الثورية في القصيدة النوفمبرية الجزائرية المعاصرة

الأستاذة الدكتورة زهيرة بولفوس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة

الملخص:

شغل موضوع حضور الثورة التحريرية الكبرى في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر وارتباطه العميق بها اهتمام الكثير من الدارسين بل إنه ظل إلى وقت غير بعيد محط الاشتغال في عديد البحوث الأكاديمية والدراسات النقدية التي تناولت الشعر الجزائري قبل الاستقلال وبعده؛ وهو ارتباط نابع من كون الثورة التحريرية الكبرى بوصفها حدثا استثنائيا في تاريخ الجزائر الحديث كانت الملهمة لكثير من التجارب الشعرية التي أخلصت للكلمة الشعرية عن قناعة منها بقوة هذه الكلمة وقدرتها على إحداث التغيير الفاعل.

لم يعد حضور الثورة التحريرية الكبرى في الشعر الجزائري المعاصر مجرد إحياء لحدث تاريخي هام، أو تمجيد لذكرى خالدة ارتبطت بشهر نوفمبر العظيم الذي أضحى يعرف بشهر البطولات والتضحيات والأمجاد، بل تحوّل هذا الحضور إلى استلهام لهذه الرؤيا الثورية ولوهجها التحوّلي الخلاق من أجل مواجهة تحديات الواقع المعاصر وانكساراته من جهة، ومن أجل تفجير إمكانات شعرية جديدة خرجت بالشعر الجزائري المعاصر عن حدود النموذج التقليدي.

نهض مشروع هذه المداخلة من أجل البحث في كنه "القصيدة النوفمبرية الجزائرية المعاصرة"، وتتبع تحولات الرؤيا الثورية فيها والكشف عن أبعادها وجمالياتها أيضا.

Summary:

The subject of the presence of the Great Liberation Revolution in modern and contemporary Algerian poetry and its deep connection with it has garnered significant interest from many researchers. Until recently, it remained the focus of numerous academic research papers and critical studies that addressed Algerian poetry before and after independence. This connection stems from the fact that the Great Liberation Revolution was an exceptional event in modern Algerian history, inspiring numerous poetic experiences that were dedicated to the poetic word, convinced of its power and its ability to bring about effective change.

The presence of the Great Liberation Revolution in contemporary Algerian poetry is no longer merely a commemoration of an important historical event or an exaltation of the immortal memory associated with the great November month, which has become known as the month of heroism, sacrifices, and glories. Rather, this presence has transformed into inspiration for this revolutionary vision and its transformative brilliance, aimed at confronting the challenges of contemporary reality and its complexities on one hand, and for unleashing new poetic potentials that have pushed contemporary Algerian poetry beyond the boundaries of the traditional model.

This intervention aims to delve into the essence of contemporary Algerian November poetry, tracking the transformations of the revolutionary vision within it and uncovering its dimensions and aesthetics as well.

1- على عتبات الإشكالية – قراءة في مفهوميّ القصيدة النوفمبرية والرؤيا الثورية:

لعل أول ما يستوقف الباحث/ القارئ المتأمل في صيغة عنوان هذه المداخلة – وعنوان الندوة أيضا – والإشكالية موضوع الدراسة فيها– هو مصطلح "القصيدة النوفمبرية"، وتحديدا ما تضمره هذه النسبة اللغوية ذات الصلة المباشرة بغرة نوفمبر1954م، تاريخ اندلاع الثورة التحريرية المجيدة، هذا الشهر الذي ارتبط في نفوس الجزائريين والعالم أجمع بالثورة والبطولة وبالقرارات التاريخية الحاسمة التي غيّرت من تاريخ الجزائر وواقعها، وكانت بداية طريقها صوب تحقيق النصر والسيادة الوطنية.

فقد آمن الشاعر الجزائري بقوة الكلمة الشعرية وبقدرتها وفاعليتها على إحداث التغيير، وبأنها سلاح فتاك آخر من شأنه حشد همم المجاهدين وتقوية عزيمتهم حتى بلوغ النصر أو الشهادة من جهة، وزعزعت صفوف العدو وإرباكها من جهة ثانية، تمثلا للبعد الرسالي المقدس للشعر الذي يعيدنا إلى مواقف تاريخية عديدة، لعل أرقاها وأكثرها حضورا في الذاكرة تكليف (الرسول ﷺ) شاعره حسان بن ثابت بهجاء المشركين في قوله:« اهجهم – أو: هاجهم – وجبريل معك »[1].

تحوّل الشعر الجزائري خلال الثورة التحريرية وبعدها إلى سجل خلد مآثرها، وتفاصيلها، وأوصل صوت أبطالها إلى العالم، فكان الشاعر لسان حال قومه، تغنى بنوفمبر العظيم، وبالفتوحات التي حققها المجاهدون في أرض الجزائر، إذ كانت الثورة التحريرية بمثابة فتح إسلامي جديد أعاد لهذه الأرض هويتها وانتماءها إلى العروبة والإسلام، بعدما سعى المستدمر الغاشم جاهدا إلى طمس كل ذلك.

استنادا إلى هذا الطرح ارتبط مفهوم " نوفمبرية" القصيدة الشعرية بالمناسبة، فكانت أغلب القصائد التي كتبت خلال تلك الفترة وبعدها – وصولا إلى وقتنا الحاضر مع تفاوت ملحوظ في الكم وفي الرؤيا وتشكيلاتها الفنية أيضا كما سنبينه تباعا في هذه المداخلة– قصائد مناسباتية، موضوعها الثورة، وهدفها تخليد أمجادها والتغني ببطولاتها، واستلهام العبر من وهجها التحولي الخلاق، ويندرج تحت هذا التصور أغلب ما كتبه الشعراء الجزائريون الرواد الذين واكبوا الحدث التاريخي وعايشوا تفاصيله، ومنهم الشاعر "مفدي زكريا"، و"مُحَمَّد العيد آل خليفة"، و"مُحَمَّد الأخضر السائحي" ، "مُحَمَّد الشبوكي"، الشاعر الشهيد "الربيع بوشامة" ، و"صالح خرفي" ، "أحمد الغوالمي"، "أبو القاسم سعد الله"، "أبو القاسم خمار"، و"مُحَمَّد الصالح باوية" ...وغيرهم، أو ما كتبوه بعد الاستقلال إحياء للذكرى الخالدة وتمجيدا لبطولاتها.

هذا المفهوم المناسباتي المرتبط بحدود الحادثة التاريخية والاحتفال بها وتمجيدها ينسحب أيضا على قصائد الشعراء المعاصرين الذين يضيق المقام –في هذه القراءة العجلى– عن ذكرهم لأن الجزائر كانت وستبقى أرض الشعر

[1]– صحيح البخاري، ص 4123، الدرر السنية، الموسوعة الحديثية، المشرف العام علوي بن عبد القادر السقّاف، متاح على الشبكة الإلكترونية: dorar.net.hadith، يوم 2023/11/26، الساعة : 21.00.

والثورة، نذكر منهم على سبيل التمثيل لا الحصر الشاعر مصطفى الغماري ، عبد الله عيسى لحيلح، ناصر لوحيشي، يوسف وغليسي، صلاح الدين باوية، خليفة بوجادي، ليلى لعوير ...وغيرهم.

لعله من غير الإنصاف الجزم بدقة هذا المفهوم وشموليته؛ حيث إنه على ما أبان في مجموع ما كتب من وحي هذه المناسبة من بعد رسالي أعاد للشعر دوره وللكلمة الشعرية وهجها وقيمتها ، فإنه يضيق عن استيعاب مفهوم "القصيدة النوفمبرية" الذي تتبناه هذه المداخلة، لأنه لم يعد يشمل فقط تلك القصائد المناسباتية، التي تدور في فلك الحادثة التاريخية ولا تتخطى حدود تمجيد اللحظة التاريخية (الفاتح نوفمبر1954م)؛ وكأنّها نصوص ولدت لهدف محدد وغاية ثابتة مكرورة، الأمر الذي جعل بعض النقاد يرفضها ، ويصفها بأنها نصوص ولدت ميتة لأنها تكلمت الثورة في بعدها السياسي لا في بعدها الفكري، ومنهم مثلا " أدونيس" الذي رفض شعر المقاومة في كثير من طروحاته النقدية [1]، وأخرجه من حيز الشعرية المعاصرة، بل إننا نجد "القصيدة النوفمبرية المعاصرة" قد تمثّلت مقولات الحداثة الشعرية، كما تمثّلت أيضا مختلف أشكال التجريب الشعري مواكبة به الراهن الإبداعي العربي المعاصر؛ حيث جنحت بها صوب الغموض فلم يعد نوفمبر فيها ملتصقا بالثورة التحريرية الكبرى فقط، بل تحوّل إلى "رؤيا ثورية" تمردية سكنت العديد من التجارب الشعرية الجزائرية المعاصرة ومنحتها القدرة على مساءلة الواقع والسياسة وتكلم المسكوت عنه في تاريخنا الرسمي، الأمر الذي فتح تلك النصوص على المتعدد القرائي بامتياز.

وفي هذا السياق لا بد أن نقف عند مفهوم "الرؤيا الثورية" الذي ألصقناه بهذا التصور الجديد للقصيدة النوفمبرية، حيث إن مصطلح الرؤيا في الإبداع الفني والأدبي تحديدا قد اقترن «بمفهوم الإبداع في صورته النهائية، إذ إنه يمكن تعريف المبدع على صعيد الرؤيا، بأنه من يبدع في نفسه صورة خيالية أو مثالا أو يبرزه إلى الوجود الخارجي...وقد يكون الإبداع كشفا لما لم يعرف بعد ، وقد يكون تأليفا جديدا لأشياء معروفة، شريطة أن يجيء هذا التأليف شكلا لم يعرف بعد»[2] ، وهذا يعني أن الأمر مرتبط بطريقة إيراد الموضوع وتشكيل الدلالة حوله، أكثر مما يتعلق باختياره في حد ذاته، لأن هذا الأخير قد يتشابه لدى جمع كبير من المبدعين ، خاصة إذ تعلق الأمر مثلا بالقيم الإنسانية أو الهموم الاجتماعية المشتركة[3].

وفي المقابل فإن مفهوم الرؤيا الذي نجنح صوبه ونتبناه في هذه الدراسة مرتبط بالكشف، بمعنى «النظر إلى الشيء لا بالحواس التي يتفق عليها كل الناس في طبيعة الشيء، وإنما عن طريق النظر بالعين الثالثة أو عين العين، التي يعرفها "جبران خليل جبران" على أنها تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم للأشياء الذي هو أعمق من

---

[1]–ينظر: راوية يحياوي: قضايا الأدب الجزائري المعاصر – قراءات في مختلف الخطابات، دار ميم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2018، ص 17.

[2]– يحيى سعدوني: سيرورة بناء الرؤيا في الشعر العربي المعاصر، مجلة الموروث ، الجزائر، مج 08، ع01، 2020خاص، ص 91، متاح على الشبكة الإلكترونية: www.asjp.cerist.dz ، يوم 2023/11/26، الساعة 21.00.

[3]– ينظر: المرجع نفسه، ص 91-92.

الأعماق، وأعلى من الأعالي. وتظهر الأشياء بهذه العين الجديدة في تغيّر مستمر، إذ لا تستقر على حال واحدة. وهذا التغيّر هو مقياس الكشف»[1].

هذه الرؤيا الكشفية ارتبطت في شعرنا الجزائري المعاصر بخطاب الثورة، وهو «الخطاب الذي يحمل دلالة الرفض لما هو سائد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويدعو إلى الثورة عليه، ويمكن تلمسه في الإبداع الأدبي شعره ونثره، ولكن الشعر بطبيعته الغامضة، يكون دائما أرحب، يتسرب منه هذا الخطاب، عبر ملفوظاته الرامزة، وأيقوناته الدالة، بخلاف النثر الذي يتسم عادة بالمباشرة، مما يجعله أقل حظا في حمل خطاب الثورة»[2].

والثورة في معناها اللغوي تعني «الهيجان ، الغضب ، والوثوب والظهور، وإذا كان المعنى اللغوي كذلك ، فإن المعنى الاصطلاحي لا يبتعد عنه كثيرا، بل هو مجمل تلك المعاني، فالثورة في الاصطلاح تعني: عدم الرضا بوضع ما والتعبير عن ذلك بالرفض والهيجان، والقيام برد فعل قوي وعنيف(...) ومن المفيد أن نوضح مصطلح الثورة بمصطلح آخر يقابله، وهو" التطور"، فالتطور يعني التغير الطبيعي المتدرج بنظام معين بعيدا عن الطفرة والفوضى، بينما الثورة تعني التغير عن طريق الطفرة والجهد الطارئ وخرق المألوف»[3].

ونحن إذ نتبنى هذا المفهوم المرتبط بالرفض والتمرد والخروج عن السائد والمألوف لا نستبعد مفهوم الثورة في المجال السياسي الذي استخدم «للتعبير عن تحرك عنيف يقوم به شعب ما ضد سلطة حاكمة لا تمثل ذلك الشعب، ولا تلبي رغباته، وذلك قصد الإطاحة بها وبنظامها، واستبدالهما بسلطة جديدة ونظام جديد»[4]؛ ولعله التصور الاصطلاحي الدارج والأكثر التصاقا بأذهان الكثير من الناس.

وعليه فإن هذه الرؤيا الثورية ذات البعد التطوري المسكون بروح الكشف والرغبة في التغيير قد منحت "القصيدة النوفمبرية" القدرة على التجديد الفني والموضوعاتي، ومجارات ركب الحداثة الشعرية، ومساءلة الراهن السياسي والاجتماعي والثقافي، ومن ثمة تحويل المناسبة إلى حافز فجر شعرية القصيدة ومحرك أظهر وهجها الإبداعي المتجدد.

هذا الحكم النقدي يحتاج إلى التدليل والتوضيح بنماذج شعرية جسّدت هذه التحولات جميعها، ولعل هذا ما سنتولى توضيحه في المباحث الآتية من هذه المداخلة تباعا.

2- نوفمبريات الشعر الجزائري الحديث وسحر الانبهار بالثورة التحريرية المجيدة:

أهدى تاريخ الفاتح من شهر "نوفمبر" الشعر الجزائري الحديث – ولا يزال- كما كبيرا من النصوص الشعرية التي تحدثت الثورة التحريرية الكبرى بكل أبعادها السياسية والتاريخية والفكرية والحضارية، كما خلّدتها، مسجلة

---

[1]- أدونيس : الثابت والمتحول(بحث في الإبداع والاتباع عند العرب)، ج3-صدمة الحداثة ،دار العودة،بيروت،1978، ص 168.

[2]- محمد عروس: سيمياء التطويع – مقاربة لخطاب الثورة في الشعر التونسي المعاصر، محاضرات الملتقى الدولي السابع السيمياء والنص الأدبي، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات ، جامعة بسكرة ، الجزائر، 29-30-31أكتوبر 2013، ص 244.

[3]- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا- دراسة فنية تحليلية، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1407هـ-1987، ص 55.

[4]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مآثرها وتضحيات شعبها وبطولاته، هذا الشعب الذي أعلن تشبعه بالمرجعية الدينية الإسلامية واستعداده لتنفيذ مشيئة الله لأن الثورة لم تقم إلا عندما أذن الله بذلك؛ حيث توحد الصف الشعري الجزائري – في سابقة قل تكررها عبر مسار تطور هذا الشعر!!- على هدف جليل واحد هو تمجيد هذه الثورة وتخليد ذكرها في العالمين، وإضفاء هالة القداسة على شهرها العظيم؛ ولعل هذا ما أكدته عديد نصوص " مفدي زكرياء" الشعرية، التي نذكر منها قوله[1]:

تـأذن ربك ليلـة قـــــدر وألقى الستار على ألف شهر

وقال له الشعب أمرك ربي وقـــال له الـــرب أمرك أمري

قدسية ما حدث في هذا الشهر وعظمته أعادت إلى الذاكرة أمجاد انتصارات العرب المسلمين أيام الفتح الإسلامي المبين، ولعل هذا ما وثقته شعرية مفدي زكرياء أيضا في قوله[2]:

نوفمبر غيّرت مجرى الحيا ة، وكنت –نوفمبر- مطلع فجر

وذكرتنا في الجزائر بدرا فقمنا نضـــاهي صحابة بـــدر

وكذا في قوله أيضا[3]:

هم الثائرون الألى ولدوا نوفـمبر من صلبهم فاستقـام

متى نزلت ثورة من سماء نـزول المسيح عليـه السـلام

تعالت أصوات الشعراء بنشيد الثورة النوفمبرية الملّخد لمعجزات هذا الحدث التاريخي الاستثنائي في تاريخ الجزائر الحديث، بل وفي تاريخ العالم أجمع، ونستحضر في هذا السياق قصيدة الشاعر مُحَّد الأخضر السائحي "نشيد الثورة " من ديوانه " همسات وصرخات" التي وقعها بتاريخ اندلا ع الثورة التحريرية الكبرى 1954م، والتي يقول فيها[4]:

وثبنا فلا تطمعي في النجاة وثرنـــا فلا تحـــلمي بالبقا

حلفنا سنمحق كل الطغاة ولا بد للـــشر أن يمحـقا

وحق الجزائر أرض الجدود وأبنائها الأقوياء الأســـود

وحق الدماء وحق العهود لسوف ترفرف هذي البنود

وتخفق بالنصر يوم اللـقا

حلفنا سنقضي على المعتدي ونمحوه في اليوم لا في الغد

فإنا هنـــاك على موعـــد نســـير إليه يـــدا في يد

---

[1]- مفدي زكرياء: إليادة الجزائر – مج1 من محاضرات الملتقى السادس للفكر الإسلامي، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر ، 1973، ص 77.

[2]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- المصدر نفسه، ص 76.

[4]-مُحَّد الأخضر السائحي: همسات وصرحات –شعر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص 153-154.

سنمضي هناك إلى الملتقى

سنمضي لنرفع هذا العلم ليخفق حرا بأعلى القمم

فإمّا قضينا حقوق الذمم وعدنا ...وإما طوانا العدم

ولكن سنمضي لكي يخفقا

سنمضي ندوي مع المدفع وإن نحـن متنا ولم نرجع

فإنـا وقفــنا ولم نـــركع وسوف أقول وقولو معي

لأرض الجــزائر طــول البقا

تعمّدنا ذكر هذا النشيد كاملا لأنه يلخص مجمل ما تضمنته مجمل النصوص الشعرية التي واكبت مرحلة الثورة التحريرية الكبرى؛ حيث كشف ذلك اليقين القوي الذي سكن نفوس الجزائريين على اختلاف أطيافهم بمشروعية هذه الثورة، وأحقية شعبها في أرضه، وهو اليقين الذي أوصلهم إلى تحقيق النصر واسترجاع السيادة الوطنية، كما كشف أيضا عن تلك الرؤيا الشعرية الاستشرافية المؤمنة التي تجاورت مأساوية اللحظة التاريخية وبشاعتها وتطلعت إلى الممكن الواعد، حيث الشهادة في سبيل الوطن الخالد أو تحقيق النصر والاستقلال التام غير المشروط.

هذا الإيمان العميق راسخ في قلوب الجزائريين جميعهم، وقد أظهره الشعراء وخلدوه في قصائدهم، ومن ذلك ما ردده لسان "مفدي زكرياء" في قوله[1]:

شربت العقيدة حتى الثمالة فأسلمت وجهي لرب الجلالة

ولـــولا الوفــاء لإســلامنا لما قــرر الشــعب يوما مآلــه

ولولا استـقامة أخلاقــنا لما أخلص الشعب يوما نضاله

ولولا تحالف شعب ورب لما حقـق الـرب يوما ســؤاله

هذه الرؤيا ذات البعد الاستشرافي النابع من إيمان عميق وراسخ أوصلت الشعب إلى تحقيق الحلم وعيشه واقعا متجليا بنشوة كبيرة وفرح غامر يوم 05 جويلية1962م، عيد الاستقلال الذي فتح المجال واسعا أمام العديد من الشعراء لتوثيق حضور هذا الحدث التاريخي المميز بكل تفاصيله وأبعاده في قصائدهم.

تحقق الاستقلال وعاش الجزائريون نشوة النصر وحلاوة استرجاع الحرية التي افتقدوها لأزيد من قرن ونصف، لكن هذه الفرحة العارمة لم تستطع طمس وهج اللحظة التاريخية التي كانت سببا في بلوغها؛ حيث تجدد حضور الفاتح من نوفمبر بحمولته التاريخية والسياسية والحضارية أيضا مع كل ذكرى سنوية لذلك، ولم يفوت الشعراء شرف استرجاع هذا الوهج وإحياء هذه الذكرى الخالدة على الدوام، ومن ذلك نذكر قصيدة "الذكرى العاشرة لفاتح نوفمبر" للشاعر مُحَمَّد العيد آل خليفة، التي ألقيت في حفلة إحياء ذكرى الثورة ليلة غرة نوفمبر1964م،

[1]- مفدي زكرياء : إليادة الجزائر، ص 97.

ونشرت بالعدد 17من مجلة المعرفة لوزارة الأوقاف الجزائرية في ذي القعدة 1384هـ مارس 1965م، لتنشر بعدها في ديوانه، والتي يقول فيها[1]:

نوفمبر قد وافَى على اليمن والبشرى بعاشرة الذكرى لثـورتنا الكـبرى
نوفمـبر قد وافى فأهلا ومرحـــبا بشهر ركبنـا فيـه مركبنا الـوعـرا
نوفمـبر قد وافى الجزائر طاويـــا من الثورة الكبرى سنين لها عشرا
نوفمبـر وافانا فذكّـرنا الفـــدى وثورتنا العظمى وأعوامها الغـبرا
نوفمبـر وافـانا فطيّبنا شـذى بذكرى ضحايانا وضمّخنا عطرا
نوفمـبر وافانا وهـل كنـوفمـبر درى دارس الثورات فيما درى شهرا
نوفـمبر عملاق الشهور ببأسه وجبـارها تحنى الرؤوس له جـبرا

هذه الرؤيا الاستذكارية أضفت الكثير من السحر والقداسة على هذا الشهر، وخرجت به من حدود الميقاتية الزمنية العادية إلى بعده الأسطوري المكتنز بعديد الإيحاءات والدلالات ، ولعل هذا ما جنح الشاعر إلى تعميقه في قوله[2]:

نوفمبر "شمشون" الشهور بأرضنا أليس على محتلّها هدم القصـرا؟
نوفمبر "هاروت" الشهور بعصرنا و"ماروتها" أبدى بثورتنا السحرا
وعلّمنا الأيمان والصـبر والفـدى وجلّ مقاما أن يعلّمنا الكـــفرا
نوفمبر أذكى من فؤادي شعوره وألهب إحساسي وألهمني الشّـعرا
نوفمبر جلّى عن بلادي ظلامها نوفمـبر في آفاقها أطلع الفـــجرا
ففاتحه قد كان أعظم فاتح لنا كسب التحريـر وانتزع النـصرا

تتقاطع القصائد النوفمبرية جميعها في الإقرار بعظمة هذا الشهر واختلافه وقدسيته وأسطورية أحداثه، خاصة تلك التي كتبت بعد نيل الحرية والاستقلال، ومنها نذكر مثلا قصيدة "نوفمبر" للشاعر أحمد الغوالمي التي نظمها سنة1963م[3]، ولذلك يمكننا التأكيد على أن ما قاله الشاعر مُحَمَّد العيد آل خليفة في تلك الاحتفالية بالذكرى للعاشرة لاندلاع الثورة نموذج راق لمجمل النصوص التي كتبت في السياق نفسه.

وهنا نشير إلى أن القصائد التي كتبت بمناسبة إحياء ذكرى الفاتح من نوفمبر العظيمة كانت تتقاطع أيضا في استذكار الوجه البطولي المشرف الذي ارتبط بهذا الشهر، وكان ملازما له، وكأن تلك النصوص التي كتبت بعيد الاستقلال لا تزال مسحوبة زمنيا إلى مرحلة الثورة التحريرية، وكأننا بالشعراء يرفضون الانغماس في قضايا الواقع

[1]- مُحَمَّد العيد آل خليفة: ديوان مُحَمَّد العيد آل خليفة، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2010م، ص400.

[2]- مُحَمَّد العيد آل خليفة: ديوان مُحَمَّد العيد آل خليفة، ص 400.

[3]- ينظر : أحمد الغوالمي: ديوان الشعار أحمد الغوالمي، تحقيق وتقديم د.عند الله حمادي ، منشورات وزارة الثافة ، الجزائر ، ط2، 2005م، ص 178.

المعيش لارتباطهم النفسي العميق بأمجاد الثورة التحريرية الخالدة وبطولاتها؛ ولعل هذا ما نلمسه في قصيدة الشاعر " مُحَّد العيد آل خليفة" سابقة الذكر، التي يقول فيها[1]:

أذاق فرنسا علقما بكفاحه ومنّا بفضل الصبر جرعها الصبرا
وثبنا عليها كالنمور جراءة وثرنا كـأسد الغاب نرعبـها زأرا
وقمنا إلى رشّاشنا برصاصنا نفنّـد دعواها ونبـطلها جـهرا
زحفنا عليها نزدري بعتادها بالـنّار والبـارود نصهـرها صهرا
وفي النار والبارود أبلغ حجة تردّ بها الدّعوى على من طغى كبرا

هذا المقطع الشعري يعيدنا إلى قصيدة "مفدي زكرياء" الموسومة "اقرأ كتابك" التي كتبها بمناسبة الذكرى الرابعة لاندلاع الثورة، وكان حينها في زنزانة السجن، والتي قال فيها[2]:

هذا (نوفمبر) قم وحي المدفعا واذكر جهادك والسنين الأربعا
واقرأ كتابك للأنام مفصـلا تقرأ به الدنيا الحديث الأروعـا
واصدع بثورتك الزمان وأهله وأقرع بدولتك الورى و(المجـمعا)
واعقد لحقك في الملاحم ندوة يقف السلاح بها خطيبا مصقعا

وعليه يمكننا الإقرار بأن هذه الرؤيا ذات الطابع الاستذكاري قد وحدت نوفمبريات الشعر الجزائري الحديث التي كتبت أثناء الثورة أوبعدها ضمن نسق نصي واحد لا يحيد عن استحضار بطولات شهر نوفمبر والتغني بعظمة ثورته وبطولاتها الخالدة، فهي رؤيا تنقل المتلقي إلى أجواء تلك المرحلة الصعبة والحاسمة من تاريخ الجزائر، وتجعله يعيش تفاصيلها بنشوة عامرة.

كما لا تكاد تخلوا قصيدة نوفمبرية مسكونة بهذه الرؤيا المنساقة إلى زمن الثورة من تقديم النصح لجيل الشباب والنشأ الجديد بضرورة التشبث بهذه الثورة والتغني بأمجادها والافتخار بالشهداء والمجاهدين اللذين كانوا سببا فيما تفخر به الجزائر بعد الاستقلال من حرية ، ولعل هذا ما يتضح جليا في قول الشاعر مُحَّد العيد آل خليفة[3]:

وكن سامـعا صوت الجزائر إنّـها تناديك بعد النصران تبني الوكرا
ولا تنس فضل السابقين إلى الفدى من الشهداء الطيـبين بهـا ذكرا
ترحّـم عليهـم واحتفظ بقـبورهـم وربّ بينهم واتّخذ عهدهم ذخرا
وهل وعهدهم إلا وصايا على الحمى لجيش وفيّ لا يـكنّ لهم غدرا
تعاهـد أن تحيا وفـيّا لعهدهم وأقسم أن ترعى مكاسبهم دهرا
عليهم سلام الله ما خـلّفوا لنا سلاما به نحيا ونغتـنم العمرا

[1]:

[2]- مفدي زكرياء: اللهب المقدس، نشر وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، ط2، 1973، ص57.

[3]- مُحَّد العيد آل خليفة : ديوان مُحَّد العيد آل خليفة، ص 402.

لعل أهم ما ميّز هذه النصوص الشعرية النوفمبرية المسكونة بهذه الرؤيا الاستذكارية المنسحبة إلى الماضي والمنطوية على أمجاده، أنها بمثابة سجّل يرصد أمجاد الثورة ويخلدها ، وهي أسمى الغايات التي سخر لها هؤلاء الشعراء أقلامهم، وفي هذا السياق يأتي التساؤل عما بعد هذه المرحلة؟، رغم كل ما قدمته من نصوص شعرية على قدر كبير من التميّز جماليا لكنها لم تستطع تجاوز التعبير عن مرحلة الثورة إلى استثمارها ، والتعبير بها عن قضايا الواقع المعيش حيث إن شعراء هذه المرحلة وقعوا تحت أسر حالة الانبهار التي أسكتتهم عن كل قول خارج حدود الثورة ومنجزاتها.

3- الوهج النوفمبري الخلاق– تمثلات الرؤيا الثورية الملهمة:

نسعى في هذا المبحث إلى تتبع مرحلة جديدة من تحوّلات الرؤيا الثورية في القصائد النوفمبرية المعاصرة، وهي المرحلة التي اصطلحنا على تسميتها بمرحلة الرؤيا الثورية الملهمة التي تجاوزت مرحلة الانبهار بالثورة ومنجزاتها إلى تمثّل بعدها التغييري الفاعل واستثماره من أجل محاولة تغيير الواقع، والتمرد على تناقضاته، ومن ثمة التعبير بالثورة عن قضايا العصر ووصولا إلى تحقيق التجاوز الإبداعي الخلاق.

تستوقفنا بداية مرحلة الخمسينيات من القرن الماضي التي شهدت انفتاح الشعر الجزائري على قصيدة التفعيلة وعلى حركة الشعر الحر في المشرق العربي واتخاذها بديلا عن القصيدة العمودية التقليدية ، حيث إن اندلا ع الثورة التحريرية الكبرى يعد من أهم الأسباب التي دفعت رواد الشعر الحر في الجزائر إلى التمرد على القصيدة العمودية التقليدية وتبني قصيدة التفعيلة ؛ فالذات الشاعرة الجزائرية كانت لا ترى في الشعر أكثر من وسيلة للتعبير عن رغبتها في التحرر، ولذلك اكتفت – في تلك المرحلة بالذات– بتلقي هذا المشروع التغيري لما وجدته فيه من توافق مع نزوعها نحو الثورة والتمرد والمطالبة المشروعة بالحرية، على الرغم من أنها بقيت أسيرة انتمائها التقليدي، ولم تستطع تعميق هذه التجربة أو تطويرها، والدليل على ذلك ما آلت إليه ممارسة الشعر الحر في الجزائر بعد الاستقلال؛ حيث شهدت التجربة انقطاعا رهيبا بعد عزوف رائدها عن ممارسة الإبداع الشعري من جهة، وتراجع أبرز شعرائها عن اندفاعهم إلى هذا الشكل الشعري من جهة ثانية[1].

وعلى الرغم من أن منجزات شعراء الخمسينيات لم تتعد العبور إلى تمثّل ظاهر هذا المشروع التغيري عن طريق أخذ الإطار الشكلي واعتماده وسيلة لتجسيد طموح الذات الشاعرة الجزائرية إلى الاستقلال ورغبتها في التحرر، وهو تمثُّل زاد من تابعيتها للمركز المشرقي، كما عمَّق تملصها من ملامح الفرادة الإبداعية الجزائرية التي لمسنا شيئا منها في تجربة "حمود رمضان "، إلا أن اللافت في هذا السياق تحديدا هو أن الرؤيا الثورية التي سكنت دواخل الذات الشاعرة الجزائرية قد وجدت لها معادلا موضوعيا في شكل القصيدة الحرة الذي يستجيب لتنوع الدفقات الشعورية التي تجتاح دواخل تلك الذات، بمعنى أن اندلا ع الثورة التحريرية كان دافعها

[1]– ونقصد بذلك انصراف الشاعر "أبي القاسم سعد الله " إلى بحوثه الأكاديمية، وتراجع الشاعر " أحمد الغوالمي " عن تبني الشعر الحر في مقاله الذي نشر بجريدة " النصر " في عددها 564 الصادر في 24/04/ 1973م ؛ الموسوم بـ : " رشحات على الشعر الحافي الخالي من الأوزان والقوافي " بعد أن كان أحد الذين نافسوا " سعد الله " على ريادة الشعر الحر بقصيدته "أنين ورجيع ". للتوسع ينظر: أحمد الغوالمي : الديوان، تحقيق وتقديم عبد الله حمادي، وزارة الثقافة، الجزائر، ط2، 2005م ص ص 47- 55 .

إلى التجديد في شكل القصيدة ، والانفتاح على إمكانات شعرية جديدة.

هذا الطرح التنظيري يحتاج إلى التدليل بنصوص من شعر البدايات، وفي هذا المقام نستحضر قصيدة "الثورة"[1] من ديوان "النصر للجزائر" للشاعر" أبي القاسم سعد الله" التي يقول فيها[2]:

كان حلما واختمار
كان لحنا في السنين
كان شوقا في الصدور
أن ترى الأرض تثور
أرضنا بالذات. أرض الوادعين
أرضنا بالذات أرض الكرماء
أرضنا السكرى بأفيون الولاء
أرضنا المغلولة الأعناق من قرن مضى
كان حلما، كان شوقا، كان لحنا
غير أن الأرض ثارت
والهتافات تعالت
من رصاص الثائرين.

نستحضر أمام هذا المقطع الشعري عبارات الشاعر في مقدمة الطبعة الثالثة للديوان، وهو يتحدث عن «الشعر الصادق الإحساس المعبر عن انفعال إنساني عميق بأدوات قادرة على توصيل ذلك الإحساس وهذا الانفعال إلى الآخرين»[3]؛ حيث وجد في الشكل الحر الأداة التي تستوعب كم الدفقات الشعورية المنبعثة من دواخله وتجسدها ضمن أسطر شعرية متفاوتة الطول نتاج تفاوت عدد التفعيلات الشعرية من سطر شعري إلى آخر، فكان في ثورة القصيدة على نمطيتها ما يستوعب ثورة الأرض على كل قيود المستعمر الغاشم .

إنّ الحس الوطني المنبعث من هذه القصيدة، ومن غيرها من قصائد الديوان، هو المحرك الذي قاد الشاعر إلى اكتشاف مناطق إبداعية لاتزال بكرا، وعليه يمكن الإقرار بأن الرؤيا الثورية التي سكنت دواخل هذه الذات وسيطرت على كل اهتماماتها وهواجسها كانت دافعا قويا نحو التجريب في شكل القصيدة الجزائرية المعاصرة، دون أن نلغي طبعا عوامل أخرى في مقدمتها التفاعل الإيجابي مع جديد الحركة الشعرية في المشرق.

ونحن إذ نشير إلى هذه الرؤيا الثورية الملهمة التي أسهمت بشكل أو بآخر في تجديد شكل القصيدة الجزائرية المعاصرة ، نؤكد أيضا أن الشعراء الجزائريين المعاصرين منذ العقدين الآخيرين من القرن الماضي قد حاولوا

---

[1] - ينظر: أبو القاسم سعد الله : النصر للجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط3، 1986م، ص ص 29-32.

[2] - المصدر نفسه ، ص 29- 30.

[3] - أبو القاسم سعد الله : النصر للجزائر ، ص 07.

استخلاص العبر من الثورة، فقاموا بتوظيف رموزها بغية تعرية الواقع وكشف فساده ، عن طريق شحن نصوصهم الشعرية بفيض من الرموز التي أضفت عليها حالة من الغموض، لعل أبرزها توظيف رمز "الأوراس" الذي أضحى معادلا فنيا للوطن «هو المطلق الذي يسافر إليه الشاعر — في خشوع وتبتل وتهجد- مريدا صوفيا في رحلة روحية طافحة بالمقامات والأحوال،،هو الأيقونة الثورية التي تستحضر أحوال الماضي المجيد ،، هو شاهد الثورة وشهيدها ، هو المكان الشعري الحالم والملاذ الروحي الذي يأوي إليه الشاعر حين يباغته قيظ الواقع ،، هو كلمة السر التي تلتقي عندها الأبجدية اللغوية كلها»[1].

نستحضر مجمل هذه الدلالات – التي خلص إليها الناقد يوسف وغليسي في مقاربته السيميائية لقصيدة " في البدء كان أوراس" للشاعر عز الدين ميهوبي- ونحن نقرأ قصيدة "جزائر المجد ...في قلبي وذاكرتي" للشاعر صلاح الدين باوية، التي يقول فيها[2]:

كَتَبْتُ بالنَّارِ للتَّاريخِ مَلْحَمَتِي ... وجِئْتُ أَقْـــرَأُ يَا أوراسُ مُعْجِزَتِي

كَتَبْتُ ألْفَ قَصيدٍ ..ألْفَ أُغْنيَّةٍ ... ومِنْ شمُوخِكَ صُغْتُ ٱلعُمْرَ قَافِيتِي

حَمَلْتُ أمْجادَ أجْدادِي علَى كَتفِي ... والحبُّ مِلءُ دَمِي مَا بينَ أجْنِحَتِي

حَمَلْتُ عَنْ كَتِفِي التَّاريخَ يَا وَجَعِي ... وجئْتُ أوراسُ مِلءَ ٱلقَلْبِ أسْئِلَتِي

لَمَّا نَسيتُ كَراريسِي ومْدَرسَتِي ... أتيتُ أبْحثُ في عينيكَ عَنْ لُغَتِي

أوراسُ يَا حُلُمًا لازالَ يَسْكُنُنِي ... ويَا قَصيدَةَ عِشْقٍ بينَ حُنْجُرَتِي

أوراسُ أوراسُ إنَّ ٱلعِشْقَ فَجَّرَنِي ... عِشْقُ الشَّهَادةِ يَا أوراسُ أُمْنِيتِي

أنَا ٱلمُتيَّمُ عِشْـقُ ٱلأرْضِ أرَّقَنِي ... أنَا ٱلمُتيَّمُ والبيضَـــاءُ مُلْهِمَتِي

ولعل الجدير بالتنبيه بداية أن "الأوراس" مؤشر مكاني للفاتح من نوفمبر 1954م تاريخ اندلاع الثورة التحريرية فمنه انطلقت شرارة الثورة المجيدة ، وعلى أرضه سجلت بطولاتها الخالدة، وقد أجمعت أغلب الدراسات التي تناولت رمزيته في الشعر الجزائري المعاصر على تقاطع شعرائنا عند حالة شعورية واحدة، يلفها الألم والحزن من الواقع المعيش ويسكنها هاجس الثورة والتمرد عليه، والرغبة في إعادة تشكيل فضائه من جديد على أساس أن أمجاده القديمة لم تعد تجدي، وهي حالة تكررت بشكل أو بآخر في قصائد العديد من الشعراء ، نذكر منهم أحمد حمدي ، عبد الله حمادي ، عياش يحياوي ، عز الدين ميهوبي ، خليفة بوجادي ، صلاح الدين باوية...وغيرهم كثير.

إن الباحث / القارئ المتأمل في قصيدة باوية سالفة الذكر تستوقفه بداية نقاط الحذف المقصودة في صيغة العنوان، التي تستفز المتلقي وتدفعه للبحث عن المسكوت عنه فيها، وإعادة كتابتها من جديد، كما تستوقفه أيضا حالة الحزن والمعاناة التي تسكن دواخل الذات الشاعرة والتي عبر عنها بالنار ، والدم والوجع ، إضافة إلى رمز

---

[1]- يوسف وغليسي : سيميائية الأوراس في القصيدة العربية المعاصرة ، الملتقى الدولي الخامس " السيمياء والنص الأدبي"، ص 112.

[2]- صلاح الدين باوية: قصيدة " جزائر المجد ...في قلبي وذاكرتي"، مخطوط مرسل من قبل الشاعر عبر بريده الإلكتروني.

"الأوراس" الشاهد الوحيد الباقي من زمن النزاهة والصدق والبطولة الحقة ، ولذلك قصده الشاعر باكيا شاكيا حالة الفساد الذي آلت إليه جزائر الشهداء في وقتنا الموبوء هذا، وهو ما يوضحه المقطع الشعري الآتي[1] :

مِنْ أينَ أبْـدأُ يَا أوراسُ أسْئِلتِي؟ مِنْ أيــنَ أبْدَأُ وٱلأحْزانُ مَمْلَكـتِي؟
دَمُ الشَّهيدِ مَدَى الأيَّامِ يَسْألُني عَنِ ٱلجزائرِ كيــفَ ٱليومَ أجْــوبَتِي؟
مَاذَا أقـولُ لَهُ وٱلحُزْنُ يعْصرُني مَا عِشْتُ وٱلخِنْجَرُ ٱلمسْمُومُ في رِئَتِي؟
بَاعُوكَ يَا وَطنِي كي يَشْتَرُوا لُعبَ آهٍ – عَلانيةً– يَا شَــرَّ مَهْـزلَــةٍ !!!

بَاعُوكَ يَا وَطنَ ٱلأحْرارِ يَا وَطَنِي بَاعُــوكَ يَا وَجَعِي أشْبَاهُ مُومسَةٍ
آهٍ تَعبْتُ مِنَ ٱلأحْزانِ يَا وَطنِي لم يبْقَ مَا أتَمَنَّى غَير تـذْكِـرَتِي

يحيلنا الواقع المرير الذي جسده هذا المقطع الشعري على المحذوف في صيغة العنوان ، وهو المجد الضائع أو المسلوب لأن مجمل التضحيات التي قدمها الشهداء من أجل الحرية والسيادة والكرامة لأبناء هذا الوطن قد سلبت من طرف السلطة الفاسدة التي تعاقبت على حكم الجزائر بعد الاستقلال، والتي بلغت ذروتها في العشرية الأخيرة ، الأمر الذي دفع بأغلب أبناء الجزائر إلى التفكير في الهجرة هربا من سوء الأوضاع المعيشية، لا تملصا من حب هذا الوطن ونكرانا لتضحيات الأجداد ، ولعل هذا ما أكده الشاعر بقوله [2]:

نُوفَمْبرُ النَّارِ مَا خُنَّا قَدَاسَتَهُ نُوفَمْبرُ النُّورِ مِلْءَ ٱلقَلْبِ فَاتِنَتِي
آمَنْتُ يَا وَطَنِي بِاللهِ...بالشُّهَدَا آمَنْتُ بالثَّورةِ ٱلكُبْرى بِمَعرْكَتِي
جَزائِـرَ ٱلمَجْدِ يَا بَيْضَاءُ مَعْذِرةً الحُبُّ أكْبرُ مِنْ شِعْرِي وَمِنْ لُغَتِي
مَهْمَا كَتبْتُ وَمَهْمَا قُلْتُ في أدَبي أنْتِ ٱلحَبِيبَــةُ أنْتِ ٱليومَ أُغْنِيتِي
نَقَشْتُ حُبَّكِ في قَلْبِي وفي كُتُبِي وفي ٱلكَرَاريسِ..في جُدْرَانِ مَدْرَسَتِي
وَرُحْتُ أرْسُمُ بالطَّبْشُورِ في شَغَف جَـزَائِـرَ ٱلمَجْدِ في قَلْبِي وَذَاكِرَتِي
غَنّيتُ لِلْحُبِّ للنَّصْرِ ٱلكَبِيرِ أنَا وَرُحْتُ أرْفَـعُ لِلْعَلْيَـــاءِ مِئْذَنَتِـي
رِسَالةَ ٱلحُبِّ لِلأجْيَـالِ أَحْمِلُهَا بينَ الضُّلُوعِ وسِحْرُ الشِّعْرِ في شَفَتِي
حَسْبِي ٱلجزَائِرِ أشْدُوهَا بقَافِيتِي إنَّ ٱلجَـزَائِـرَ ويْح ٱلقَلْبِ وَالِـدَتِي

عبّرت هذه القصيدة عن معاناة جيل كامل من الشباب الذي عاش المفارقة بين ما يعيشه من واقع حياتي صعب ومرير وبين ما يطفح به وطنه من خيرات مسلوبة، وبين وما قرأه في كتب التاريخ أو سمعه من أفواه الأجداد عن عظمة الثورة التحريرية، وأمجاد الماضي التليد، وقد عبّر عن ذلك بالثنائية الجدلية (النار/ النور)، التي تحيل دلاليا

[1]– المصدر نفسه.

[2]– صلاح الدين باوية: المصدر السابق.

على الثورة/ الأمل ، وكأننا بالشاعر يبحث عن الوهج الثوري ، ويسعى إلى استلهامه من أجل تشكيل واقع جديد يعيد إلى الشعب عزته وكرامته.

والحقيقة نقول إن القصيدة نص مكتنز بعديد الدلالات التي يضيق المقام عن استحضارها، لكنها في مجملها تكشف عن قدرة الشاعر على تعرية حقيقة الواقع المزيف الذي يتخبط فيه أغلب شباب الجزائر، والذي دفع بمعظمهم إلى اتخاذ الهجرة سبيلا للفرار من معاناته.

إن اللافت في شعر هذه المرحلة أنه ورغم القطيعة الزمنية بين التجربة الشعرية وقضية الثورة التحريرية إلا أن الكثير من التجارب الشعرية قد أظهرت ولاءها لهذه الثورة وامتنانها لتضحيات الشهداء، متحدثة بضمير الجماعة عن حب هذا الجيل لأرضه واعتزازه بثورتها الخالدة، ومن ذلك ما عبّر عنه الشاعر "عبد الله عيسى لحيلح" في قصيدته "نشيد الكبرياء" التي ألقاها في عكاضية الجزائر للشعر العربي في طبعتها الرابعة، والتي يقول فيها[1]:

يكفيك في سمع الزمان نوفمـــبر فافخر، فغيرك بالهزيمة يفخـــر
شهر أضاء لنا السبيل إلى الهدى من قبل أن كدنا نضل ونكـفر
شهر من طهر القلوب بيـــاضه أنقى، ومن خضر المنابع أخضر
حاكتـــه بالألم المقـــدس أمة بدم الشهيد مـطرز ومـــطهر
شهر وتسبيح الرصاص صلاته له فوق أعـناق المدافع منبـــــر

اعتزاز الشاعر بانتمائه الوطني وبثورته الخالدة التي لخصها في شهر نوفمبر العظيم سرعان ما كشف عن رؤيا إيديولوجية حالمة بوطن إسلامي؛ حيث زاوج بين نوفمبر تاريخ الجهاد من أجل الاستقلال، وبين الكفاح من أجل مواصلة تعاليم الدين " شهر أضاء لنا السبيل إلى الهدى " ، كما أقام مقارنة دلالية بين "حمزة" و"حيدر" و"بدر" وخيبر" واستعار معظم ألفاظه من القاموس الديني (الطهر، القدس، تسبيح، القرآن ، آية ، الجهاد، الأئمة، الهداة، شهداؤنا، الله الحمد ،ذنبنا، تتطهر ، الصراط...)، فطوّع موضوع نوفمبر(الثورة) بتركيبته الإيديولوجية[2].

بناء على ما تقدم يمكننا الإقرار بأن الرؤيا الثورية في القصيدة النوفمبرية قد شهدت تحولات عدة أخرجت هذه القصيدة من حدود المناسباتية الخاضعة إلى الرؤيا الاستذكارية التي تفرضها طقوس الاحتفال بهذه الذكرى العظيمة الخالدة؛ إلى الانفتاح على المتعدد القرائي الذي أنتجته هذه الرؤيا الخلاقة الملهمة التي انشطرت إلى بدورها إلى رؤى متعددة تختلف من تجربة شعرية إلى أخرى ، أثمرت في مجملها نصوصا شعرية مكتنزة ، أضحى "نوفمبر" فيها هو ذلك المفرد بصيغة الجمع المشبع بالغموض، الذي يطالب القارئ باستحضار جميع السياقات الخارجية الاجتماعية والتاريخية والنفسية والأنساق النصيّة الداخلية من أجل فك شفرته .

[1]- ورد في: راوية يحياوي: من قضايا الأدب الجزائري المعاصر، ص 16.

[2]- ينظر : المرجع نفسه، ص 17.